معالم القرآن والسنة
مجلة محكمة
السنة الثالثة، العددان الثالث والرابع، ٢٠٠٧-٢٠٠٨

عيادة بن أيوب الكبيسي

درء شبهة اتهام المحدثين بقلة الفقه من خلال كتاب دفاع عن السنة للدكتور محمد أبي شهبة عرض وتحليل

Abstract

There are many faulty accusations against the Sunnah made by the Orientalists, despite the efforts and care taken by the Muslims to preserve it. In response, many contemporary Muslim scholars wrote books to counteract these false accusations. One of them were Muhammad ibn Abu Shahbah in his book entitled *Difa' 'an al-Sunnah*. As such, this paper endeavours to analyse the methods adopted by Abu Shahbah in disproving some of these false accusations based on a critical study of both the *sanad* and *matn* of the hadith. It also highlights the importance of his book on defending the Sunnah and its sanctity.

مقدمة

الحمد لله الذي تكفل بحفظ الدين، وحماه سبحانه من عبث العابثين، وتحريف المبطلين، بما قيض من علماء أجلاء، سهروا على خدمته، وصرفوا أوقاتهم في نصرته، مصداقا لقول الصادق المصدوق ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين" [١].

وبعد :

فإن الشبه المثارة حول السنة المطهرة قد كثرت وتنوعت، فقد هال أعداء الإسلام وأذهلهم، ما امتازت به هذه الأمة من الاهتمام والعناية الفائقة بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ـــ بما لم يكن له نظير في الدنيا كلها ـــ ، تتبعا وجمعا وحفظا، وتمحيصا للروايات، ودراسة الأسانيد والمتون، وفهمها، واستنباط الأحكام والحكم منها، وفق منهج محكم سليم، مما أثار الحسد والغيظ في صدور أولئك الأعداء من المستشرقين ومن هم على شاكلتهم من المستغربين وأذنابهم، فأثاروا تلك الشبه الكثيرة المتنوعة !!

غير أن تلك الشبه الكثيرة قد تهاوت الواحدة تلو الأخرى، ببركة تلك الجهود المشكورة التي بذلها علماء الأمة الأجلاء .

وقد كان من بين المدافعين عن سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فضيلة

---

١ – أخرجه ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس، في مقدمة الجرح والتعديل بهذا اللفظ عن عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني مرفوعا١/٣١٤، وأخرجه ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله، في التمهيد من عدة طرق عن أبي هريرة وغيره من الصحابة رضي الله تعالى عنهم محتجا به١/٥٩-٦٠، والخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، في أصحاب الحديث ص ٢٩، وابن الوزير، محمد بن إبراهيم، في الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم، وصححه ص ٢٢، والسخاوي، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن، في شرح الهداية وقواه ص ١٤، ونقل تحسينه عن الحافظ العلائي، ونقل الخطيب عن الإمام أحمد تصحيحه كما في شرف أصحاب الحديث ص ٢٩، والألباني، محمد في السلسلة الصحيحة وصححه ١/٤٨٥، ٨٥٣ .

الشيخ الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو شهبة رحمه الله تعالى، ذلك العلم البارز والطود الشامخ، الذي لا يخفى على المشتغلين في الدراسات القرآنية والحديثية، إذ قد ضرب في تلك الردود والتمحيصات بأوفر نصيب، فلم يقتصر على رد ما أثير حول السنة، وإنما كان له تتبع دقيق ـــ أيضا ـــ في رد الشبه التي أثيرت حول القرآن، حتى إن القارئ لكتبه والمتتبع لتلك الردود يكاد يقول : إن الشيخ كان متخصصا في ذلك [٢].

والعلامة أبو شهبة غني عن التعريف، فهو علم بارز، ونجم لا مع، لا يخفى على أهل العلم، لا سيما المشتغلين بالدراسات القرآنية والحديثية، وكتبه في هذا واسعة الانتشار، ويمكن أن نعد أبا شهبة على رأس قائمة الذين قاموا بدحض الشبهات، ذاك لأنه لم يقتصر على درء الشبهات المثارة حول السنة المطهرة، وإنما صنع نظيره بالنسبة للشبه المثارة حول القرآن الكريم [٣].

ومن بين كتبه المتعددة في خدمة السنة، تم اختيار كتابه "دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، وبيان الشبه الواردة على السنة قديما وحديثا وردها ردا علميا صحيحا"

وهو كتاب حافل، واضح من عنوانه، رأيت أن أقوم بعرضه والتعليق على بعض ما جاء فيه، بما يبرز شيئا من جهود شيخنا في هذا الباب، الذي كان جل اهتمامه الانتصار للحق وكبح جماح الباطل، وهو القائل عن القسم الثاني من كتابه : هذا الكتاب الذي يعتبر عصارة ذهني وعقلي، وقلبي، وخلاصة عمر

---

٢ – من الظريف أن شيخنا سيد أحمد صقر، كان يمزح مع شيخنا أبي شهبة ـــ رحمهما الله تعالى ـــ، فيقول : من كثرة ما يقول شبهة كذا وشبهة كذا، قيل له أبو شهبة، فهو أبو شبهة !!!

٣ – ألمحت إلى شئ من هذا في البحث الذي قدمته في مؤتمر "القرآن الكريم والجهود المبذولة في خدمته من بداية القرن الرابع عشر الهجري إلى اليوم" الذي عقد في جامعة الشارقة سنة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.

طويل في دراسة السنة النبوية المطهرة، والردود على ما يثار حولها من شبه وتجنيات وأباطيل، ما يزيد عن ثلث قرن من الزمان، ولله الحمد والمنة .

ومن المواضع المهمة التي تم الوقوف عندها :

شبهة أثارها المستشرقون ومن لف لفهم من المتأثرين بهم والمقلدين لهم من أبناء هذه الأمة، وهي شبهة خطيرة، يرمون من ورائها إلى الطعن في علماء السنة وأنهم لا يعرفون إلا جمع الأحاديث غير مميزين بين الغث والسمين، فرموهم بقلة الفقه، وأن جل عنايتهم كانت في الإسناد، أما المتون فلم يولوها العناية التي تستحقها من البحث والنظر والفقه، وبنوا على ذلك روايتهم لأحاديث يرون ـــ أي المستشرقون ومن قلدهم ـــ أنها لا تصمد أمام النقد لأنها لا تتفق مع العقل في نظرهم، غير مفرقين بين أحاديث الغيب وأحاديث الشهادة !!

وهذه فرية بلا مرية، فإن لعلماء السنة جهودا واضحة في نقد المتون، وتمحيص الروايات، وبيان فقه الحديث .

وقد برز من المحدثين فقهاء لهم وزنهم ومكانتهم بين العلماء، من مثل محمد بن مسلم الزهري، وأبي عبد الله أحمد بن حنبل، وعبد الله بن المبارك، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ويحيى بن معين وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهم .

وأما الفقهاء السبعة المشهورون، سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد ، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد، فقد كانوا بناة مدرسة الحديث في المدينة المنورة كما لا يخفى.

ولذا فإن إطلاق القول بعدم عنايتهم بالمتون وتمحيص الروايات، وإغفال ما لهم من مزايا ومناقب في هذا الخصوص، يعدّ غمطا لحقوقهم وطمسا لمآثرهم، ورحم الله تعالى ابن عاشور إذ يقول ـــ وهو يتحدث عما أشاده الأقدمون ـــ:

.. عالما بأن غمض فضلهم كفران للنعمة، وجَحْد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة [٤]، فتأمل!!

*****

وقسمت البحث إلى :

مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، مع ذكر بعض المقترحات .

أما المقدمة : فهذه .

وأما المبحث الأول : ففي عرض الشبه المثارة حول السنة النبوية بوجه عام، وفيه مطلبان :

الأول : ذكر نماذج من الشبه حول السنة النبوية .

الثاني : جهود العلماء في دحضها وتفنيدها، وذكر أهم الكتب في ذلك .

المبحث الثاني : في جهود الشيخ أبي شهبة في خدمة السنة النبوية من خلال كتابه "دفاع عن السنة" .

وفيه ثلاثة مطالب :

الأول : نبذة مختصرة عن حياة الشيخ وآثاره العلمية .

الثاني : عرض كتاب "دفاع عن السنة" بوجه عام .

الثالث : الوقوف عند فقرتين من فقراته .

وأما الخاتمة : فذكرت فيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، مردفا ذلك ببعض المقترحات.

---

٤ – انظر محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون للطباعة، ١/٧

الشبه المثارة حول السنة النبوية بوجه عام

لقد حارب أعداء الإسلام السنة النبوية كما حابوا القرآن، لأنهم يعلمون أنهما المصدران المهمان بالنسبة للمسلمين، وأن عزهم ونصرهم مرتبط بمدى التمسك بهما، فكما أثاروا الشبه الكثيرة حول كتاب الله تعالى، أثاروا الشبه الكثيرة حول سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكما تلونت الشبه المثارة حول القرآن، تلونت الشبه المثارة حول السنة .

كما أن أعداء الإسلام قد انبهروا بالميزة التي امتازت بها هذه الأمة من الاهتمام والعناية الفائقة بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، بما لم يكن له نظير في الدنيا كلها، فلم تعرف أمة من الأمم مثل هذه الرعاية والعناية، جمعا وحفظا وتنقيحا وتمحيصا وتدقيقا واستنباطا وعملا، وفق منهج سليم محكم، مما أثار الحسد والغيظ في نفوس أولئك الأعداء من المستشرقين ومن هم على شاكلتهم من المستغربين وغيرهم .

فأثاروا الشبه المتنوعة، وأطلقوا ألسنتهم في الطعن بالسنة المشرفة، كاشفين عن طعونهم تارة، ومستترين باسم البحث العلمي تارة أخرى .

وكما باءت محاولاتهم مع القرآن بالفشل، باءت كذلك مع السنة، وحالهم هناك وهنا كما قال الشاعر :

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

فإن الله تعالى الذي تكفل بحفظ كتابه من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، تكفل بحفظ السنة [٥]، فمع كثرة الأحاديث الموضوعة والمكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن علماء الأمة استطاعوا بتوفيق الله وعونه

---

٥ - ذهب ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد رحمه الله تعالى في الإحكام ١/١٢١: إلى أن المراد بالذكر في قوله تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} الحجر /٩ ما يشمل السنة، حيث قال: والذكر اسم واقع على كل ما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم من قرآن أو سنة وحي بين بها القرآن، وأيضا فإن الله تعالى يقول: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل

أن يغربلوا تلك الأحاديث ويبينوا زيف تلك الضلالات، فميزوا بين الأصيل والدخيل، والصحيح والعليل، والمكتبة الحديثية المتنوعة خير شاهد على جهود العلماء الجليلة في ذلك.

ورحم الله تعالى الخليفة هارون الرشيد [٦] الذي عرف قدر هؤلاء العلماء، وأدرك علو شأنهم، فإنه حين أخذ أحد الزنادقة ليقتله وقال له الزنديق : لم تضرب عنقي؟ قال له : أريح العباد منك، قال الزنديق : فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما فيها حرف نطق به ؟ قال له هارون ـــ رحمه الله تعالى ـــ : فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري [٧]، وعبد الله بن المبارك [٨]، فينخلانها ويخرجانها حرفا حرفا [٩]

إليهم} النحل /٤٤، فصح أنه عليه السلام مأمور ببيان القرآن للناس، وفي القرآن مجمل كثير كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك مما لا نعلم ما ألزمنا الله تعالى فيه بلفظه لكن ببيان النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا كان بيانه عليه السلام لذلك المجمل غير محفوظ ولا مضمون سلامته مما ليس منه، فقد بطل الانتفاع بنص القرآن، فبطلت أكثر الشرائع المفترضة علينا فيه، فإذاً لم ندر صحيح مراد الله تعالى منها ، وإلى مثله ذهب الشاطبي في موافقاته ١٢/١.وانتصر له مصطفى حسني السباعي،في السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص١٥٦.

٦ – هو أمير المؤمنين هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، ولد سنة ١٤٥هـ وقيل: ١٤٦هـ بطبرستان، وبويع بالخلافة سنة ١٧٠هـ، قال ابن خلدون: كان يصحب العلماء والأولياء، ويحافظ على الصلوات والعبادات، ويصلي الصبح في وقته، ويغزو عاما ويحج عاما،، وقال الخطيب البغدادي: كان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة، وكان يتصدق في كل يوم من صلب ماله بألف درهم، وقال الإمام الذهبي: كان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حج وجهاد، وغزو وشجاعة، وله نظر جيد في الأدب والفقه، وكان يحب العلماء، ويعظم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، وقال الفضيل بن عياض: ما من نفس تموت أشد عليّ موتا من هارون أمير المؤمنين، ولوددت أن الله زاد في عمره من عمري، توفي بطوس وهو يجاهد في سبيل الله سنة ١٩٣هـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وقد أفرد بالتأليف في عدة كتب، وإنما أطلت في ترجمته، ونقلت طرفا من أقوال جهابذة العلماء فيه، لكثرة الشبه التي أثارها أعداء الإسلام حوله كما لا يخفى. انظر الخطيب، تاريخ بغداد ٥/١٤، ومحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٨٦/٩، وإسماعيل بن عمر ابن كثير، البداية والنهاية ٢٦/١٤، واقرأ كتاب: "هارون الرشيد ـــ الخليفة العالم والفارس المجاهد" البيومي، محمد رجب .

٧ – هو إبراهيم بن محمد بن الحارث الكوفي، أحد الإئمة، ثقة مأمون حافظ، له تصانيف، مات

إن أمثال أبي إسحاق وابن المبارك ـــ رحمهما الله تعالى ـــ في الأمة لكثير، حملوا لواء الدفاع عن الدين، وشرف الذب عن سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

ولسنا هنا بصدد الكلام عن الشبه كلها، ولا عن من قام بتفنيدها من العلماء على مر العصور، ولكنا سنقتصر على الشبه المثارة في العصر الأخير، لنخلص بعدها إلى الكتاب الذي نحن بصدد عرضه والتعليق على بعض فقراته. وهو ما نذكره في المطلب الأول من هذا المبحث .

المطلب الأول

نماذج من الشبه المثارة حول السنة النبوية

لقد حاولت المدرسة الاستشراقية ومثلها المدرسة الاستغرابية ومن نحا نحوهما، تشويه صورة السنة النبوية الشريفة في الطعن بها، وإثارة الشبه المتنوعة والمتعددة حولها، مما يطمعون من ورائها تشويه صفائها، وزعزعة عقائد المسلمين، وبلبلة أفكارهم تجاهها .

طاعنين في أسانيدها ومشتملاتها على النحو الذي وجهوه من النقد للقرآن الكريم، وأفرطوا في الخيال حين زعم "جولد تسهير" أن السنة النبوية من

مات سنة خمس وثمانين ومائة، وقيل : بعدها . انظر الذهبي، تذكرة الحفاظ١/٢٧٣، أحمد بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ١/١٥١، العسقلاني، التقريب، ١/٤١.

٨ – هو الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام، فخر المجاهدين، وقدوة الزاهدين، جمعت فيه صفات الخير، أبو عبد الرحمن الحنظلي، توفي بهيت في العراق في رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة، وله ثلاث وستون ـــ رحمه الله تعالى . انظر الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/٢٧٤-٢٧٩، الخطيب، تاريخ الخطيب ١/١٥٢، العسقلاني، التقريب، ١/٤٤٥، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، شذرات الذهب، ١/٢٩٥.

٩ – انظر جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحذير الخواص من أحاديث القصاص، ص ١٦٣، ملا علي القاري،الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، ص٦٢ .

صنع المسلمين في القرون الثلاثة الأولى، وتغالوا في إظهار الطعون التي قد يقتنع بعض البلهاء وذوو المقاصد الخبيثة بها، من أجل الإساءة لدين الله وشرعه، واستغلوا وضع بعض الأحاديث أو ضعفها، وهذا على العكس دليل تميز السنة وتنقية العلماء لها من الدخيل أو الغريب، فإن المحدثين ورجال الأثر برعوا براعة لا نظير لها في التوثيق والتعديل والتجريح، مما أدخل الطمأنينة لثمرات جهودهم الجبارة، ولم يكن لهم مثيل في تاريخ العلوم عند الأمم الأخرى، فلم يعد كتاب الحيوان للدميري الذي اعتمد عليه "جولد تسهير" مرجعا مقبولا للسيرة النبوية الذي جاء فيه أن أبا حنيفة لم يكن يعرف ، إن كانت معركة بدر كانت قبل أحد أم بعدها !! [١٠].

ولنذكر بعض الشبه التي أثاروها حول السنة المشرفة، فمن ذلك :

ـــ تأخر تدوين السنة عن زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، مما سبب ـــ على زعمهم ـــ التلاعب بالنصوص النبوية، وطرو الزيادة والنقصان عليها، الأمر الذي أفقد الثقة بسلامتها، وقد تولى كبر هذه الشبهة جمع من المستشرقين من أمثال : وليم موير، والويز سير نكر، وثيودور نيولدكي، وعلى رأسهم جولد زيهر [١١].

ـــ إكثار بعض الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ من رواية الأحاديث، مما شكك في سلامة النقل، لا سيما ما رواه الصحابي الجليل أبو هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ .

ـــ ورود بعض الأحاديث التي لا تتفق ومنهج العقل، مما يستبعد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد قالها، كحديث الذبابة، وفقأ نبي الله موسى ـــ عليه السلام ـــ لعين ملك الموت، والأمر بشرب أبوال الإبل، ونحوها .

---

١٠ - وهبة انظر الزحيلي. بحث مواجهة الغزو الثقافي الصهيوني والأجنبي، نشرته مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، عدد ١١ سنة ١٤١٦هـ /١٩٩٥م، ص ٢٧ .

١١ - انظر نجيب العقيقي. المستشرقون، ٩٠٨/٣ .

ومع ما كشفت عنه أبحاث الإعجاز العلمي من حقائق وأسرار وعجائب [١٢]، تدل على صدق ما جاء في هذه الأحاديث وأمثالها، فإنه لا تزال تلك الشبه تثار بين الحين و الآخر، حتى غدت هناك مواقع على شبكة المعلومات الدولية الإنترنيت [١٣] لا شغل لها إلا تكرار إثارة تلك الشبه ملبسة لها أثوابا جديدة لتوهم من لا اطلاع له عليها بأنها جديدة {قاتلهم الله أنى يؤفكون}.[١٤]

ـــ رد أحاديث صحيحة بدعوى أنها مشكلة، اعتمادا على عقل المستشكل، دون وضع ضوابط منهجية لذلك !! مثل ما ورد في الحبة السوداء، وعجوة المدينة المنورة، وغيرها من أحاديث الطب النبوي .

ـــ ادعاء وجود أحاديث ضعيفة أو موضوعة في الصحيحين، الذين تلقتهما الأمة بالقبول، مما يزعزع الثقة بهما، والشك في مصداقية مؤلفيهما، والتشكك في شرطيهما .

ـــ ادعاء أن صحيح البخاري يضم عددا غير قليل من الإسرئيليات، حتى ألف بعضهم في هذا كتابا سماه : "الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها" !!

---

١٢ – عقدت هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة عدة مؤتمرات وندوات علمية بهذا الخصوص، أولها : كان بإسلام آباد باكستان سنة ١٤٠٨هـ، ثم مؤتمر الإعجاز الطبي في القرآن و السنة في القاهرة سنة ١٤٠٩هـ، ثم في دكار ـــ السنغال سنة ١٤١٢هـ، وموسكو سنة ١٤١٤هـ، وباندونغ بأندونيسيا سنة ١٤١٥هـ، ونواكشوط بموريتانيا سنة ١٤١٩هـ، وبيروت ـــ لبنان سنة ١٤٢١هـ، ودبي بدولة الإمارات العربية المتحدة سنة ١٤٢٥هـ، وغيرها حيث لم تزل هذه البحوث متتابعة، وقد أسفرت هذه المؤتمرات والندوات وغيرها عن أبحاث قيمة كشفت عن وجوه متعددة من الإعجاز العلمي في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ .

١٣ – انظر مثلا شبكة "سابميشون" uwww.submission.org ، فقد أوردوا أحاديث كثيرة من الصحيحين وغيرهما موهمين أنها مخالفة للواقع المحسوس أو العقل الصريح، وثمة مواقع أخرى تحاول إطفاء نور الله، وإلقاء الشك في نفوس المؤمنين به، جاهلين أو متجاهلين قول الله جل في علاه : {يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون} التوبة/٣٢ .

١٤ – سورة المنافقون، آية : ٤ .

ـــ ادعاء أن السنة لم تضف جديدا من الأحكام، وأن كتاب الله تعالى يغني عنها، لقوله تعالى : {ما فرطنا في الكتاب من شئ} ١٥، وقوله : {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لك شئ} ١٦، مما يدل على أنه قد حوى كل شئ من أمور الدين، وكل حكم من أحكامه، وإلا كان الكتاب مفرطا فيه، ولما كان تبيانا لكل شئ، فيلزم الخلف في خبره تعالى وهو محال ١٧، فيجب الاكتفاء به، وهو ما انبثقت عنه فرقة من يسمون أنفسهم بالقرآنيين .

ـــ ادعاء أن الله تعالى قد تكفل بحفظ القرآن بقوله {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}١٨ و لم يتكفل بحفظ السنة، ولذا فالعمل بالقرآن دون السنة .

هذه أبرز الشبه التي يثيرها أعداء الإسلام من وقت لآخر، سواء كانت بالطريقة نفسها، أم بطرق جديدة، ولنكتف بهذا، ولنشرع في بيان أبرز الجهود التي بذلها علماء الأمة في تفنيد تلك الشبه ودحضها، وإلا فإن الاسترسال في هذا الموضوع يطول، حيث لم يزل هؤلاء يثيرون الشبه، ويتطاولون على السنة، ويطعنون في دواوينها التي تلقتها الأمة بالرضا والقبول عبر القرون.

المطلب الثاني

جهود العلماء في رد تلك الشبه وتفنيدها

لم يقف علماء الإسلام مكتوفي الأيدي تجاه تلك الشبه، بل أبلوا بلاء حسنا في دحضها وتفنيدها، شأنهم في ذلك شأن العلماء الذي تصدوا لدحض الشبه التي أثيرت حول القرآن الكريم، ذاك لأن كلا من القرآن والسنة إنما يصدر

---

١٥ – سورة الأنعام، آية : ٣٨ .
١٦ – سورة النحل، آية : ٨٩ وتمامها : {وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين} .
١٧ – انظر محمد بكار زكريا. بحث السنة حجة على الأمة، نشرته حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة عدد ١٨ سنة ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م ٢/٥٥٨ .
١٨ – سورة الحجر، آية : ٩، وانظر هامش٥ ص٥ في هذا البحث.

من مشكاة واحدة، وقد تلقى النبي صلى الله عليه وسلم الوحيين من الله تعالى، وحي القرآن ووحي السنة، وإذا كان الله تعالى قد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : {وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم} ١٩ ، فإنه قد قال عنه : {وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى} ٢٠، وإذا كان الله تعالى قد أمر بامتثال أمر القرآن ودعا إلى اتباعه، حيث قال : {وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون} ٢١ ، فإنه قد قال فيه : {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ٢٢ .

وقد تمثلت جهود العلماء في نشر تلك الكتب والبحوث القيمة، التي أخذت حيزا كبيرا في المكتبة الإسلامية، وسنشير هنا إلى طرف منها .

فمن ذلك :

١ــ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، للدكتور مصطفى السباعي ــ رحمه الله تعالى ــ ، وهو كتاب قيم، فند فيه كثيرا من الشبه المثارة، ومنها التي ذكرت سابقا حيث قال رحمه الله تعالى : إن القرآن الكريم قد حوى أصول الدين، وقواعد الأحكام العامة، ونص على بعضها بصراحة، وترك بيان بعضها الآخر لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وما دام الله تعالى قد أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين للناس أحكام دينهم، وأوجب عليهم اتباعه، كان بيانه للأحكام بيانا للقرآن، ومن هنا دانت أحكام الشريعة من كتاب وسنة وما يلحق بهما ويتفرع عنهما من إجماع وقياس، أحكاما من كتاب الله تعالى، إما نصا وإما دلالة، فلا منافاة بين حجية السنة وبين أن القرآن جاء تبيانا لكل شئ ونقل قول الشافعي

---

١٩ - سورة النمل، آية : ٦ .
٢٠- سورة النجم، الآيتان : ٣و٤ .
٢١ - سورة الأنعام، آية : ١٥٥ .
٢٢ - سورة الحشر، آية : ٧ .

رحمه الله تعالى : فليست تنزل بأحد من دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها [٢٣] .

وقال ـــ أيضا ـــ في نقد ما افتراه شيخ المستشرقين جولد زيهر على السنة النبوية : ولعل أشد المستشرقين خطرا، وأوسعهم باعا، وأكثرهم خبثا وإفسادا في هذا الميدان، هو المستشرق اليهودي المجري جولد تسهير ... وسأحاول هنا نقد خلاصة آرائه في هذا الصدد ـــ غير متتبع لكل فقرة من فقراته، فذلك يقتضي كتابا مستقلا على حدة، فإن بحوثه في هذا الشأن يضيق نطاق هذه الرسالة عن إثبات الرد عليها جملة جملة، وحسبي أن أشير إلى الاتجاهات العامة، والخطوط الرئيسية في بحوثه، وأترك بقية الرد التفصيلي لفرصة أخرى، وأرجو الله أن يفسح في الأجل للقيام بهذا الواجب [٢٤].

٢ـــ دفاع عن السنة، لشيخنا الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو شهبة ـــ رحمه الله تعالى ـــ ، تولى فيه الرد على كثير من الشبه المثارة، وهو الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه، نظير ما صنع في كتابه المدخل إلى دراسة القرآن الكريم .

٣ـــ دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، للشيخ مصطفى الأعظمي، وفيه رد شاف على مزاعم المستشرقين، ودحض شبهتهم في تأخر تدوين الحديث الشريف عن زمن النبي صلى الله عليه وسلم .

٤ـــ الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة، للشيخ عبد الرحمن يحيى المعلمي، وهو كتاب قيم، دحض فيه مؤلفه ـــ كما هو ظاهر من عنوانه ـــ الشبه التي أثارها صاحب كتاب أضواء على السنة المحمدية.

---

٢٣ – انظر مصطفى حسني السباعي. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص ١٥٥؛ وانظر الإمام محمد بن إدريس والشافعي، الرسالة ،ص٨٠ رقم ٤٨ .

٢٤ – انظر ص ١٩٠ فما بعدها .

٥ ــ ظلمات أبي رية، للشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، وهو مثل سابقه، في دحض الشبه المثارة في كتاب أبي رية المتقدم.

٦ ــ حجية السنة ومصطلحات المحدثين وأعلامهم للشيخ عبد المتعالي الجبري، وفيه رد الشبهة السابقة، بأن الله لم يتكفل بحفظ السنة، فقال : إن الذكر يعني الدين كله، وليس القرآن وحده كما في الآية الأخرى {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [٢٥]، أي أهل العلم بدين الله وشريعته، ولا ريب أن الله كما حفظ كتابه هيأ العلماء الذين عكفوا على حفظ السنة من كل شائبة، ووضعوا لذلك من الموازين والسجلات ما جعل الحديث الصحيح بينا، والضعيف والموضوع بينا كذلك، وظهرت علوم الحديث من أجل ذلك [٢٦].

٧ ــ مكانة الصحيحين ، للدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر، تولى فيه مؤلفه الدفاع عن الصحيحين، ورد الافتراءات المزعومة ودحض الشبه المثارة حولهما، مما يعزز الثقة بهما، ويبوؤهما الصدارة اللائقة بهما .

٨ ــ منهج النقد في علوم الحديث، للأستاذ الدكتور نور الدين العتر، وهو من أحسن الكتب في هذا الباب ــ كما قال مقدمه الأستاذ الدكتور أبو شهبة ــ، وفيه دحض مزاعم المستشرقين ومقلديهم في اتهام رجال الحديث بعنايتهم في الأسانيد دون المتون .

٩ ــ أصول منهج النقد عند أهل الحديث، للدكتور عصام أحمد البشير، وهو كتاب قيم في بابه على وجازته .

١٠ ــ عناية المحدثين بمتن الحديث كعنايتهم بإسناده والرد على شبهات المستشرقين وأتباعهم للشيخ محمد الطحان .

---

٢٥ – سورة الأنبياء، آية : ٧ .

٢٦– انظر ص ٤٢، وانظر ص٥ هامش ٥ في هذا البحث.

١١ ــ نقد المتن بين صناعة المحدثين ومطاعن المستشرقين للدكتور نجم عبد الرحمن خلف.

١٢ــ اهتمام المحدثين بنقد الحديث سندا ومتنا ودحض مزاعم المستشرقين، للدكتور محمد لقمان السلفي .

وهذه الكتب الخمسة ــ كما يتضح من عناوينها ــ تعالج الموضوع نفسه، وهو الدفاع عن رجال الحديث وأنهم عنوا بالمتون عنايتهم بالأسانيد.

١٣ ــ منهج السلف في فهم النصوص، للدكتور الشيخ محمد علوي مالكي رحمه الله تعالى.

١٤ ــ دفاع عن الحديث النبوي وتفنيد شبهات خصومه، للأساتذة محب الدين الخطيب وسليمان الندوي، والدكتور مصطفى السباعي .

١٥ ــ ظاهرة خطيرة في رفض السنة النبوية في المجتمع الإسلامي، للدكتور صالح أحمد رضا

١٦ ــ أقدم آثار تدوين الحديث كتابة . للدكتور محمد حميد الله بحث منشور في مجلة الدراسات الإسلامية ــ اسلام آباد ــ باكستان ــ عدد ١ــ مجلد ٢٠ .

وهذه البحوث الأربعة ــ على وجازتها ــ بحوث قيمة، فيها دحض لكثير من الشبه المثارة بهذا الخصوص.

وقد أجاد مؤلفو هذه الكتب والبحوث وأفادوا ــ جزاهم الله خيرا وأجزل مثوبتهم ــ، في منافحتهم عن سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم التي لا يمكن أن يفهم كتاب الله تعالى، ولا أن يعمل به على الوجه الذي يرضيه جل وعلا إلا عن طريقها، كما سبقت الإشارة إلى ذلك بقوله تعالى: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون}.

وجهود العلماء كثيرة متنوعة، كثرة الشبه المثارة وتنوعها، ولسنا هنا بصدد الاستقصاء، إنما هي نماذج أوردناها، يعلم من خلالها مدى اهتمام علماء الأمة

بالدفاع عن السنة النبوية الشريفة، وهذا بلا ريب من حفظ الله تعالى لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فمع تكرر الشبه عبر القرون، فإنه لم يخل قرن من ردود قوية، وحجج دامغة، تتهاوى أمامها تلك الشبه والضلالات الواحدة تلو الأخرى، ليبقى الحق أبلج واضحا أشد ضياء ووضوحا من الشمس في رابعة النهار، وليتعرى الباطل، ويبين ما فيه من هراء وافتراء، فالحمد لله رب العالمين .

المبحث الثاني

جهود الشيخ أبي شهبة رحمه الله في خدمة السنة المطهرة من خلال كتابه: " دفاع عن السنة"

وفيه ثلاثة مطالب :

الأول : نبذة مختصرة عن حياة الشيخ أبي شهبة،وآثاره العلمية .

الثاني : عرض الكتاب بوجه عام .

الثالث : درء شبهة اتهام المحدثين بقلة الفقه .

المطلب الأول

نبذة عن حياة الشيخ أبي شهبة [٢٧]

هو الشيخ الجليل الأستاذ الدكتور محمد بن محمد الملقب بأبي شهبة، المكنى بأبي عمر. كان من أعلام الأزهر وعلمائه البارزين، عمل عميدا لكلية أصول الدين بأسيوط بجمهورية مصر العربية.

---

٢٧ – لم يتيسر لي الوقوف على ترجمة شافية لشيخنا رحمه الله تعالى، والعجيب أن الأستاذ محمد خير رمضان يوسف، لم يذكره في تتمة الأعلام، ولا في تتمة معجم المؤلفين !! والشكر الجزيل لأخينا الفاضل الأستاذ الدكتور حسن يونس عبيدو الذي زودني ببعض المعلومات لا سيما تحديد سنة الوفاة، بعد أن اتصلت به هاتفيا وهو في القاهرة .

ثم عمل أستاذا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة لمدة ١٣ ثلاثة عشر عاما، وقد أشرف على عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، سواء كان في مجال التأليف، أو إحياء التراث بالدراسة والتحقيق، وناقش عددا مماثلا في ذلك .

وقدم خلال هذه المدة برنامج "قراءات مختارة من صحيح الإمام البخاري مع شرحها" ٢٨.

من أشهر مؤلفاته :

ـــ الحدود في الإسلام .

ـــ مشكلة الربا وحلولها .

ـــ الوسيط في علوم الحديث .

ـــ تفسير سورة الواقعة .

ـــ الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير .

ـــ دفاع عن السنة، ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين .

ـــ السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة .

ـــ المدخل لدراسة القرآن الكريم .

ـــ الوضع في الحديث .

وقد عرفت شيخي الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو شهبة ـــ رحمه الله تعالى ـــ معرفة جيدة يوم كنت طالبا في الدراسات العليا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، في مرحلتي الماجستير والدكتوراه ٢٩، فقد تتلمذت على يديه في السنة

---

٢٨ – ولم تزل تذاع حتى أيامنا هذه، وكان رحمه الله تعالى يعتز بهذا النتاج العلمي ويقول : إن قدر لي أن أنجزه فكأني لم أمت .

٢٩ – مما أذكره هنا : أني لما سجلت رسالتي لنيل درجة الدكتوراه في تفسير سورتي الأنفال والتوبة لابن أبي حاتم الرازي ـــ دراسة و تحقيق وتخريج ـــ، في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، رأى مجلس الكلية الاقتصار على إحدى السورتين، لكثرة الآثار فيهما، فكان ممن اعترض

التحضيرية للماجستير عام ١٣٩٩هـ، وزيادة على محاضرات الدروس، فقد حضرت له عددا كثيرا من مناقشة الرسائل الجامعية، مع لقاءات أخرى ممتعة، ولست هنا بصدد الحديث عن سيرته، إنما قصدت أن أبين أن ما ذكره عن نفسه من عفة القلم، عندما قال : .. فقد أخذت على نفسي منذ أمسكت بالقلم أن أترفع عن مثل هذه السفاسف ..! والسباب والشتم إنما هي بضاعة العاجز الذي لا يسعفه المنطق السليم، والحجة الدامغة .. [٣٠].

أقول : هذا مشابه لما عرف عنه من عفة اللسان، وحسن الخلق، فقد كان يبدو في محاضراته ومناقشاته هادئا متزنا، مقتصرا على النقاش العلمي، دون أن يمس أحدا أو يشنع به أو يجرحه، وهذا خلق جليل، جدير بأهل العلم أن يتحلوا به في مناقشاتهم وردودهم العلمية، بعيدا عن الشتم والسباب وبذيء الألفاظ!!

توفي في القاهرة سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، بعد عمر حافل بخدمة القرآن وعلومه والسنة وعلومها [٣١]، رحمه الله تعالى ورضي عنه، وجزاه عنا وعن طلبة العلم خير ما يجازي به عباده الصادقين .

المطلب الثاني

التعريف بكتابه "دفاع عن السنة"

افتتح الشيخ كتابه بمقدمة قصيرة لم تتجاوز خمس صفحات، إلا أنها جاءت على غاية من الأهمية، يمكن أن نستخلص منها دوافعه إلى دفاعه عن السنة، ومنهجه فيه .

الدكتور أبو شهبة حيث قال : بما أن الطالب ألزم نفسه بذلك، فأمضوهما عليه، فوافق مجلس الكلية الموقر على خطة البحث كاملة، وأنا ربما رغبت بالتخفيف حينئذ كما هو شأن الطلبة، ولكن كلما تذكرت ما وفقني الله تعالى له من إنجاز العمل أقول : جزاه الله خيرا، فقد أحسن صنعا، لأن السورتين كالسورة الواحدة، لتشابه قصتهما، وأما التعب فقد مضى، وثبت الأجر والخير إن شاء الله تعالى ، فالحمد لله رب العالمين .

٣٠ - انظر محمد بن محمد أبو شهبة، دفاع عن السنة، ص٣٩ .

٣١ - بهذه العبارة "خادم القرآن وعلومه والسنة وعلومها" كان يختم مقدمات كتبه ـ رحمه الله تعالى ـ.

فقد انتظمت نقاطا مهمة، نذكرها مسلسلة على النحو الآتي :

ـــ الإشادة بالأصلين الشريفين الكتاب والسنة، وأن مرجع الشريعة إليهما .

ـــ السنة على أقسام : بعضها بوحي جلي، وبعضها بالاجتهاد، الذي متى ما سكت عنه الوحي اكتسب صفة الوحي، فيقول : وبهذا المعنى يعتبر كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم وحيا، وصدق الله حيث يقول : {وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحي} ٣٢ .

ـــ ثم يبين عناية الأمة بتبليغ الأصلين عناية فائقة لم تعهد في أمة من الأمم .

ـــ ويذكر بعدها بدأ التدوين بصفة عامة، وكيف أن أئمة الحديث وصيارفته وضعوا لهذا أدق قواعد النقد وآصلها وأعدلها، سواء أكان ذلك يتعلق بنقد الأسانيد أم المتون .

ـــ ثم يذكر ما مني به الإسلام من قديم الزمان بأعداء لا ينامون، ينسجون الخيوط ويحيكون المؤامرات، فأشار إلى الفرق الضالة التي عمدت إلى تحريف معاني الآيات الكريمة، والتشكيك في ثبوت السنة، وما عمله الوضاعون من اختلاق الروايات التي تظهر الأحاديث بمظهر السطحية والسذاجة في التفكير .

ـــ ثم تحدث عن القساوسة والمستشرقين في العصور الحديثة، الذين أخذوا هذه الطعون والشبهات فنفخوا فيها، وزادوا فيها ما شاء لهم هواهم أن يزيدوا، وحملوها أكثر مما تحمل، وطلعوا بها على الناس .

ـــ ثم جاء من أبناء هذه الأمة من هو أشد من أولئك هوى وعصبية وعداء للسنة وأهلها، فتناولوا بعض الصحابة بالتجريح لا سيما الصحابي الجليل أبو هريرة ـــ رضي الله عنه وعنهم أجمعين ـــ كما صنع أبو رية في كتابه " أضواء على السنة المحمدية " .

---

٣٢ – سورة النجم، الآيتان: ٣و٤.

ـــ وبعد أن أشار إلى أن البحث في السنة ليس هينا ولا سهلا، وأن الله تعالى قد قيض لها من نافح عنها ورد كيد الكائدين لها، تحدث بنعمة الله عليه، وشكره سبحانه وتعالى على أن جعله من المتشرفين بدراسة السنة والمدافعين عن ساحتها الطاهرة دفاعا عن علم وتثبت، ودراسة واقتناع، لا عن عصبية وعاطفة .

ـــ ثم نوّه بفضل من سبقه في هذا المضمار في الدفاع عن السنة الشريفة، وختم مقدمته القصيرة بقوله رحمه الله تعالى :

وها أنذا أزف كتابي إلى قراء العربية، وعشاق السنة ومحبيها ذوي الغيرة عليها، وإلى طلاب الحقيقة، ومحبي المعرفة في كل قطر من أقطار الإسلام والعروبة، وسأقدم بين يدي الردود بحوثا في منزلة السنة من الدين، والاحتجاج بها، وموجزا في الأطوار التي مرت بها، والأصول والقواعد التي وضعها علماء الرواية وأئمة النقد في الإسلام .

فإن كان ما قلته صوابا فمن الله، وإن كانت الأخرى فالحق أردت، والصواب قصدت، {وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب} .

ثم إن شيخنا ـــ رحمه الله تعالى ـــ لم يرتب كتابه ترتيب الأبواب والفصول والمباحث، وإنما جعله على فقرات متتابعة، كل فقرة تحت عنوان بارز، وفق منهجية محكمة منسقة .

وقد جاء في قسمين :

القسم الأول: بدأ من أول الكتاب إلى ص ٢٤٩، وقد تضمن مباحث متعددة، تبين مكانة السنة وأنها بالدرجة الثانية من القرآن الكريم، ومن الفقرات المهمة فيه:

استقلال السنة وحجيتها، وهو مبحث مهم، بذل فيه الشيخ الجليل ـــ رحمه الله تعالى ـــ جهدا مشكورا في بيان منزلة السنة من الدين، وأنها حجة الله على العالمين، باتفاق من يعتدّ به من أهل العلم، فقد نقل ص ١٣ عن الإمام الشوكاني ـــ رحمه

الله تعالى : قوله : إن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في الإسلام ٣٣، وقال : وصدق الشوكاني فإنه لم يخالف في الاحتجاج بالسنة إلا الخوارج والروافض، فقد تمسكوا بظاهر القرآن وأهملوا السنن، فضلوا وأضلوا، وحادوا عن الصراط المستقيم .

ومن المباحث المهمة ـــ أيضا ـــ :

تدوين الحديث والأطوار التي مر بها ، وعناية المحدثين بالنقد والدراية، وعنايتهم بنقد الأسانيد والمتون، لا سيما عنايتهم بفقه الأحاديث ومعانيها .

ثم شرع في الرد على أبي رية، ونقد كتابه "أضواء على السنة المحمدية"، وقسمه إلى نقدين . نقد إجمالي أخذ نحو ست صفحات، ثم نقد تفصيلي، كان هو القدر الأكبر من الكتاب

وهذا تقسيم حسن ومفيد، حيث يستطيع القارئ أن يقف على مضمون الكتاب وفحوى ما فيه بيسر، ثم إن أراد الوقوف على التفاصيل بوجه عام، أو على أي قضية من قضياه، أو مسألة من مسائله، فدونه النقد التفصيلي للكتاب، الذي استغرق نحو مائتين وتسع صفحات من القطع الكبير.

ومن أبرز مباحث هذا الرد :

ـــ عناية المحدثين بالسند والمتن، وسرّ اتئادهم في نقد المتون.

ـــ تجني أبي رية على سيدنا عمر ـــ رضي الله عنه ـــ وأنه سجن بغض الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ بسبب رواية الحديث.

ـــ اعتماد أبي رية على كلام المستشرقين، ومتابعته لهم في كل ما زعم.

ـــ منهج أبي رية في البحث غير علمي.

---

٣٣ – انظر محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول، ص ٢٩.

ـــ طعن أبي رية في أحاديث صحاح.

ـــ منزلة الصحابة في الإسلام وبيان عدالتهم.

ـــ إسفاف أبي رية في نقد الصحابي أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ .

ـــ تحريفه لكلام الائمة بقصد التقليل من شأن الأحاديث.

ـــ ذكر بعض الأحاديث المشكلة والرد عليه فيها .

وفي الآخر فقرة مهمة بعنوان : أبو رية طول كتابه في غير طائل.

ثم ختم هذا القسم بقوله ص٢٤٨-٢٤٩ :

وبعد : فهنا يا أخي القارئ سألقي القلم فقد وفيت بما وعدت به من إظهار حقيقة هذا الكتاب، ولعله استبان لك ـــ كما استبان لي ـــ هذا الكتاب على حقيقته، وأن مؤلفه لم يقصد من ورائه إلا الطعن في السنة والأحاديث والتقليل من شأنها ويقول : ولعلك تحققت أن المؤلف تابع لغيره، وبوق يردد ما قاله المستشرقون والمبشرون، وأنه عار عن التحقيق وصفة البحث العلمي الصحيح، وإنما هي دعاوى واتهامات ليس لها ما يسندها، ولا ما يدل عليها، فلا تلق بالا لما فيه من أباطيل، وعليك بما كتبه الأئمة المحققون من رجال الحديث ففيه الغَناء والشفاء .

هذا عرض مختصر لما في القسم الأول من كتاب دفاع عن السنة، اتضح من خلاله أن المؤلف ـــ جزاه الله خيرا ـــ قد تناول فيه مباحث مهمة، تبقى منارا مشعا لبيان الحقيقة الناصعة، والكشف عن الأباطيل الزائفة.

وسنعرض في الفقرة القادمة ما تناوله المؤلف في القسم الثاني من الكتاب، وذلك على غرار ما تم عرضه في القسم الأول.

وأما القسم الثاني :

فهو في بعض الشبه الواردة على السنة قديما وحديثا، وردها ردا علميا صحيحا .

وكان هذا القسم مخطوطا و لم ينشر إلا بعد وفاة المؤلف ـــ رحمه الله تعالى ـــ .

ويبدأ من ص ٢٥٠ ـــ ص٣٩٤، وقد ذكر فيه جملة من الأحاديث التي كثرت إثارة الشبه حولها، كما أشار إلى هذا في ص ٣٢٩ وقال :

ولن أذكر شيئا من الأحاديث التي بينت مفصل الحق فيها في هذا الكتاب فيما سبق، ولكني سأذكر أحاديث أخرى قد أثيرت حولها الشبهات، واشتدت الخصومة فيها بين أنصار السنة المنصفين، وبين أعدائها الحاقدين على الإسلام والمسلمين.

وسيأتي الحديث عن بعضها في المطلب القادم ـــ إن شاء الله تعالى ـــ .

المطلب الثالث

درء شبهة اتهام المحدثين بقلة الفقه

تقدم أن المستشرقين وأذنابهم قد أثاروا شبهة خطيرة، رموا من ورائها إلى الطعن في علماء السنة، وأنهم لا يعرفون سوى جمع الأحاديث، غير مميزين بين الغث والسمين، فرموهم بقلة الفقه ..إلخ [٣٤].

ولعظيم خطر هذه الشبهة وشدة ضررها، فقد أفردها الشيخ أبو شهبة بفقرة خاصة، مبينا ما كان عليه المحدثون من الجمع بين علمي الرواية والدراية، وأنهم كانوا على قدر عال من الفقه والفهم، فيقول ـــ رحمه الله تعالى ـــ ص ٣١ تحت عنوان "عناية المحدثين بفقه الأحاديث ومعانيها" :

وكذلك عنوا بفقه الأحاديث وفهمها،ولم يكونوا زوامل للأخبار لا يفقهون لها معنى، كما زعم بعض المتخرصين على المحدثين، والرعيل الأول من أئمة الحديث الذين جمعوه وغربلوه ونخلوه حتى صار نقيا من الشوائب والغرائب،

---

٣٤ – انظر ص ٢ المتقدمة في هذا البحث .

كانوا أهل فقه ودراية بالمتون، وذلك أمثال الأئمة : مالك وأحمد والسفيانين الثوري وابن عيينة، والبخاري ومسلم، وباقي أصحاب الكتب الستة وغيرهم .

ويتضح من هذه الفقرة أن الشيخ يركز على أمور مهمة للتدليل على ما كان عليه أئمة الحديث من فقه وفهم ويمكن أن نحددها بالنقاط الآتية :

ـــ أن المحدثين لم يكن همهم الجمع دون تمحيص وتدقيق .

ـــ أن مرحلة الجمع تزامنت مع النظر الثاقب، والبصيرة الواعية .

ـــ أن أئمة هذا انسأن كانوا أعلاما في الفقه وفن الدراية .

ـــ ولذا فإن اتهامهم بقلة الفقه ما هو إلا شبهة واهية تهاوت أمام الحقائق المنقولة عنهم .

وهذا كلام صحيح، تؤيده الدلائل الكثيرة، المنقولة عن النقاد في العصور الأولى، حيث كان الحفظ والضبط والفقه هو السمة الغالبة عليهم، حتى إنهم قد ساووا بين نقد السند ونقد المتن، فمما أثر عن علي بن المديني شيخ البخاري ـــ رحمهما الله تعالى ـــ قوله:

التفقه في معاني الحديث نصف العلم، ومعرفة الرجال نصف العلم [٣٥]، فانظر كيف وازن بينهما ؟

وهذا يعني أن نقد المحدثين في المرحلة الأولى نقد علمي متكامل بجميع عناصره، لا يفصل الإسناد عن المتن، حيث يقوم أساسا على المعرفة الحديثية والفقهية، ومن ثم أصبحت علوم الحديث تحوي هذين الجانبين دون فكاك [٣٦].

---

٣٥ – انظر محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. سير أعلام النبلاء، ٤٨/١١ .

٣٦– انظر حمزة عبد الله المليباري. نظرات جديدة في علوم الحديث، ص ١٠٠، واقرأ فيه فقرة " الدقة والتكامل من أهم سمات منهج المحدثين في نقد الأحاديث ص١٢٦ التي يقول في ختامها : .. الأمر الذي يؤكد على دقة منهج المحدثين وشموليته في النقد، وأن المستشرقين لم يأتوا بشئ جديد ينبغي إملاؤه على الأمة الإسلامية لاستدراك ما فاتهم طوال هذه القرون الغابرة.

ثم ينقل الدكتور أبو شهبة عن أئمة السلف، ما يدل على مدى عناية المحدثين بفقه الحديث، فيقول : قال أحمد بن الحسن الترمذي : سمعت أبا عبد الله ـــ يعني ابن حنبل ـــ يقول : إذا كان يعرف الحديث ومعه فقه أحب إليّ ممن حفظ الحديث ولا يكون معه فقه

وروى الحاكم في تاريخه عن عبد العزيز بن يحيى قال : قال لنا سفيان بن عيينة : يا أصحاب الحديث تعلموا معاني الحديث، فإني تعلمت معاني الحديث ثلاثين سنة ٣٧.

والنصوص المنقولة عنهم في هذا الباب كثيرة، وما اقتصر عليه الشيخ رحمه الله تعالى كاف في التدليل على ما يريد .

وإتماما للفائدة نذكر طرفا آخر منها، فمن ذلك :

ـــ قول الإمام أحمد ـــ إضافة إلى ما تقدم ـــ : "إن العالم إذا لم يعرف الصحيح والسقيم، والناسخ والمنسوخ من الحديث لا يسمى عالما"، وجاء مثله عن إسحاق بن راهويه ٣٨.

وقول عبد الرحمن بن مهدي : "لو استقبلت من أمري ما استدبرت لكتبت بجنب كل حديث تفسيره" ٣٩

ـــ وقول قتادة : "من لم يعرف الاختلاف لم يشم أنفه الفقه" ٤٠.

ـــ وأما مقولة : لو كان أحدنا قاضيا لضربنا بالجريد فقيها لا يتعلم الحديث، ومحدثا لا يتعلم الفقه التي نقلت عن غير واحد من رجال الحديث ٤١، فمعلومة

---

٣٧ – ابن مفلح، الآداب الشرعية ١٢٩/٢ .

٣٨ – انظر محمد بن عبد الله الحاكم. معرفة علوم الحديث، ص ٦٠ .

٣٩ – انظر عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني. الإملاء والاستملاء، ص ١٣٥ .

٤٠ – نظر أبو عمر يوسف بن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، ٤٦/٢ .

٤١ – انظر محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني. نظم المتناثر من الحديث المتواتر، ص٣، فقد نسبها إلى السفيانين وغيرهما .

مشهورة، تنبئ عن مدى الحرص على التلازم بين الفقه والحديث الذي كان عليه أئمة الحديث .

ولا نطيل من النقول، فقد ألفت في ذلك الكتب، ويكفي أن تقرأ عبارة أبي عبد الله الحاكم التي يقول فيها : مِنْ عِلْم الحديث معرفة فقه الحديث، إذ هو ثمرة هذه العلوم، وبه قوام الشريعة ٤٢

ثم يضرب الشيخ أبو شهبة مثالا، للتدليل على صحة ما ذهب إليه من عناية المحدثين بفقه الأحاديث فيقول ـــ رحمه الله تعالى ـــ :

وإنك لتلمس أثر الفقه والفهم للأحاديث في صحيح الإمام البخاري في تبويبه الأبواب، وطريقته في التراجم، وتكراره أو تقطيعه للحديث الواحد في مواضع بحسب مناسباته الفقهية، وكثيرا ما يدلي برأيه في مسائل تكون موضع الخلاف، وقد يترك المسألة من غير قطع إذا لم يترجح عنده شئ حتى لقد قيل : فقه البخاري في تراجمه ٤٣، وكذلك طريقة مسلم في ترتيب كتابه، وطريقة أصحاب السنن، ولا سيما الترمذي فقد عرض في سننه لكثير من الآراء الفقهية عرض رجل بارع فاهم عارف .

وحقا إنها لفقرة مهمة، فهي على وجازتها قد أتت على الشبهة من جذورها، وقد كان الشيخ موفقا في تناولها، فإنه لا يخفى ما للفقه من منزلة ومكانة في الدين ، كيف وقد دعا الله تعالى إليه في كتابه الكريم، حيث قال سبحانه وتعالى : {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين}٤٤، ورغب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ٤٥.

---

٤٢ – انظر معرفة علوم الحديث، ص٦٣ .

٤٣ – انظر ما تقدم في ص ١١ هامش ٢ .

٤٤ – سورة التوبة، آية : ١٢٢ .

٤٥ – متفق عليه من حديث معاوية ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ، أخرجه البخاري برقم ٧١ في كتاب العلم ـــ باب : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ١٦٤/١، ومسلم برقم ١٠٣٧ في كتاب الزكاة ـــ باب : النهي عن المسألة ٧١٨/٢ .

والفقه هو الفهم، وبه يعرف الحق من الباطل والصدق من الكذب، وما يؤخذ وما يرد، ومن هنا أولاه علماء السنة عنايتهم الفائقة، ومن هنا ـــ أيضا ـــ أثيرت شبهة اتهام المحدثين بعدم عنايتهم بفقه الحديث، وأنهم لم يعنوا بنقد المتون ٤٦.

والحق إنها مسألة تستأهل أن تفرد بالكتابة، وأن تأخذ حقها من البحث والتمحيص، فكيف يتهم المحدثون بذلك، وأعلامهم من كبار الفقهاء ؟!!

وهل يخفى كتاب الرسالة للشافعي على ذي عينين؟ ذلك السفر القيم الذي جمع بين أصول الفقه وأصول الحديث ٤٧.

وما أصدق محققه العلامة الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله تعالى إذ يقول: هو أول كتاب ألف في أصول الفقه، بل هو أول كتاب ألف في أصول الحديث أيضا .. إن أبواب الكتاب ومسائله التي عرض الشافعي فيها الكلام على حديث الواحد والحجة فيه، وعلى صحة الحديث وعدالة الرواة، ورد الخبر المرسل والمنقطع إلى غير ذلك، وهذه المسائل عندي أدق وأغلى ما كتب العلماء في أصول الحديث، بل إن المتفقه في علوم الحديث يفهم أن ما كتب بعده إنما هو فروع منه وعالة عليه، وإنه جمع ذلك وصنفه على غير مثال سبق ٤٨.

وقد تقدم ذكر بعض أسماء فقهاء المحدثين ٤٩.

ويقول الشيخ أبو شهبة رحمه الله تعالى ـــ ص٢٤١ـــ في معرض رده على أبي رية عندما اتهم المحدثين بقصورهم في باب الدراية :

.. فكثير من أئمة الحديث قديما وحديثا جمعوا بين الرواية والدراية، وكثير منهم يحذق الأصولين ـــ أصول الدين وأصول الفقه ـــ، وإذا كان بعض علماء الفقه والأصول تهجموا على بعض الأحاديث وردوها فليس ذلك لأنهم أعلم بالمتون،

---

٤٦ – انظر أحمد أمين. ضحى الإسلام، ٢/١٣٠ .
٤٧ – انظر ما نقله الخطيب في تاريخ ٢/٦٤-٦٥ عن عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى.
٤٨ – انظر الشافعي، مقدمة الرسالة ص ١٣ .
٤٩ – انظر ص ٣ من هذا البحث .

ولكن ذلك يرجع إلى قصورهم في باب العلم بالرواية وشروطها، وعدم تمرسهم فيها كما تمرس علماء الحديث، وإذا كان بعض الرواة كانت مهمتهم الجمع والحفظ دون البصر بالمروي والفقه فيه، فهؤلاء قلة لا يقام لهم وزن، والمحدثون المحققون أنفسهم قد نددوا بهم، وجعلوا فقه الحديث وفهمه من آداب طالب الحديث، قال ابن الصلاح في مقدمته :

"لا ينبغي لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكتبه دون معرفته وفهمه، فيكون أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل، وبغير أن يحصل في عداد أهل الحديث، بل لم يزد على أن صار من المتشبهين بالمتحلين بما هم منه عاطلون" [٥٠]، ثم يقول الشيخ أبو شهبة :

فهل هناك أصرح من هذا في لزوم عناية أهل الحديث بمعنى الحديث وفقهه؟!!

وقول الشيخ : وإذا كان بعض علماء الفقه والأصول تهجموا ..إلخ، تنبيه حسن، ودفاع مقبول عن رجال الحديث، وليس فيه غضاضة من قدر علماء الفقه والأصول، فإن الشيخ كان دقيقا في عبارته حيث أتى بكلمة بعض، وهذا أمر واقع لا مجال للنزاع فيه، ومن إنصاف الشيخ أن يستعمل نفس الكلمة بعض لدى الكلام عن رواة الحديث الذين قصروا في علم الدراية .

ولذا فإن عناية شيخنا رحمه الله تعالى في إبراز هذا الجانب في دفاعه عن السنة بالغ الأهمية، ولكن إنصاف الشيخ وبحثه الجاد عن الحقيقة، لم يمنعه أن يصدر اللوم إلى بعض رجال الحديث الذين ينطبق عليهم وصف قلة الفقه، فيقول كما في ص٣٢:

نعم لقد وجد في العصور المتأخرة أناس ـــ وهم قلة ـــ جعلوا همهم

---

٥٠ – انظر عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح. مقدمة ابن الصلاح، ص ٢١٢ .

الرواية والجمع دون الفقه والفهم للمتون ، ولكنه لا يقف عند هذا بل يضيف : وهؤلاء إنما وجدوا بعد أن جمعت السنن والأحاديث في دواوينها المعتمدة، ثم ينقل ما جاء عن ابن الجوزي ـــ رحمه الله تعالى ـــ في هذا فيقول :

ولعل هؤلاء هم الذين عناهم أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه " صيد الخاطر " ووصفهم بأنهم زوامل للأسفار، يحملون ما لا يعلمون .

ونضيف، ونحوه ما جاء عنه في كتابه " تلبيس إبليس " :

من ذلك قوم استغرقوا أعمارهم في سماع الحديث والرحلة فيه، وجمع الطرق الكثيرة، وطلب الأسانيد العالية، والمتون الغريبة، وهؤلاء على قسمين : قسم قصدوا حفظ الشرع بمعرفة صحيح الحديث من سقيمه، وهم مشكورون على هذا القصد، إلا أن إبليس يلبس عليهم بأن يشغلهم بهذا عما هو فرض عين، من معرفة ما يجب عليهم، والاجتهاد في أداء اللازم، والتفقه في الحديث ثم يقول:

فترى المحدث يكتب ويسمع خمسين سنة، ويجمع ويكتب ولا يدري ما فيها، ولو وقعت له حادثة في صلاته لافتقر إلى بعض أحداث المتفقهة الذين يترددون إليه لسماع الحديث منه، وبهؤلاء تمكن الطاعنون على المحدثين فقالوا : زوامل أسفار لا يدرون ما معهم [٥١].

وهم الذين عناهم الخطيب البغدادي قبل ابن الجوزي ـــ رحمهما الله تعالى ـــ بقوله :

وقد استفرغت طائفة من أهل زماننا وسعها في كتب الأحاديث، والمثابرة على جمعها من غير أن يسلكوا مسلك المتقدمين، وينظروا نظر السلف

---

٥١ – انظر عبد الرحمن بن أبي الحسن بن الجوزي. تلبيس إبليس، ص ١١٤–١١٥ .

الماضين في حال الراوي والمروي، وتمييز سبيل المرذول والمرضي، واستنباط ما في السنن من الأحكام، وإثارة المستودع فيها من فقه الحلال والحرام [٥٢].

أقول :

وقد استشرى هذا في الدراسات المعاصرة، حيث فصلت مناهج التعليم بين الفقه والحديث، وأصبح طالب الحديث لا شغل له بالفقه، وطالب الفقه لا شغل له بالحديث، وهذا أمر خطير، ونذير شر لا بد من تلافيه قبل استفحاله[٥٣]، وأخطر ما فيه أن يتصدى مثل هؤلاء للإفتاء وتقرير الأحكام !! وههنا مكمن الخطر، وعظيم الضرر، ولو أنهم رجعوا رجوع من ذكرهم ابن الجوزي إلى الفقهاء لهان الخطب، ولكنها الجرأة على الفتيا من غير أهلها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !!

وأما الفقرة الثانية التي سنقف عندها، فهي التي جاءت في ثنايا الرد المفصل، والتتبع الدقيق لكل ما جاء في كتاب أبي رية، تلك الفقرة التي عنون لها الشيخ كما في ص ٤٣: بـــ السر في اتئاد المحدثين في نقد المتون .

وهي مكملة لما ذكرناه في الفقرة السابقة، وبذلك ترتسم الصورة الواضحة لما كان عليه نقدة الأحاديث ـــ رحمهم الله تعالى ـــ من علم وفهم وبصيرة .

يقول الدكتور أبو شهبة ـــ رحمه الله تعالى ـــ :

---

٥٢ انظر الخطيب. الكفاية في علوم الرواية،ص ١٨ فما بعدها .

٥٣ – بعد طرح هذه الفكرة، عرض عليّ بحث للتحكيم بعنوان " ضرورة وصل الحديث بالفقه في الدراسات الشرعية المعاصرة" قدم إلى الندوة الدولية الثانية حول الحديث الشريف وتحديات العصر، التي عقدت في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي ١٨-٢٠/٢/١٤٢٦هـــ الموافق ٢٨-٣٠/٣/٢٠٠٥م، وهو بحث مهم، قدمه الأستاذ الدكتور توفيق بن أحمد الغلبزوري، ونشر في وقائع الندوة ٣٢٩/١ غير أنه ليس بكاف في معالجة مثل هذه القضية، ولا يغني عن وضع كتاب بهذا الخصوص، نرجو أن يقوم به بعض الباحثين المتخصصين .

نعم نحن لا ننكر أن المحدثين توسعوا في نقد السند أكثر من توسعهم في نقد المتن، وذلك ما نحب أن نجليه للقراء والباحثين .

أقول : وهذه مسألة كنت أريد أن أذكرها قبل أن أقف على ما ذكره شيخنا رحمه الله، فالحمد لله أن كانت الفكرة صائبة، ذاك لأن العناية بنقد الأسانيد كانت فائقة ـــ كما يقول في ٣٠ ـــ بحيث لم يدعوا زيادة لمستزيد، وقد خلفوا لنا في نقد الرجال ثروة هائلة ضخمة، منها ما ألف في الثقات، ومنها ما ألف في الضعفاء، ومنها ما ألف فيما هو أعم منهما، ولم يكتفوا بنقد للرجال بالتجريح الظاهري، بل عنوا أيضا بالنقد النفسي، وليس أدل على هذا من تفريقهم بين رواية المبتدع الداعية وغير الداعية .

إن تلك العناية بنقد الأسانيد التي لا مثيل لها في دنيا الناس، إنما لم تكن مساوية لنقد المتون، لا لقصور في أئمة الحديث، كلا، ولكن لاعتبارات تدل على قوة فهم رجال الحديث وبعد نظرهم .

يقول ـــ رحمه الله تعالى ـــ : وفي الحق أن علماء الحديث كانوا أبعد غورا، وأدق نظرا، وأهدأ بالا، حينما لم يجروا في نقد المتن الأشواط البعيدة التي جروها في نقد السند، وذلك لاعتبار ديني لاحظوه في السنة عند الاكتفاء بصلاح الرواي وتقواه وعدالته ظاهرا وباطنا، وضبطه وحفظه وتوقيه الكذب على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في نص هو أصل ومرجع في الدين، فمتى توفرت العدالة بشرطها مع الضبط والحفظ والأمانة، والتحرج من التزيد والتغيير كان احتمال الكذب والاختلاق [٥٤] بعيدا جدا إن لم يكن ممتنعا، وإذن لم يبق بعد من حاجة للمبالغة في نقد المتن .

---

٥٤ – في الأصل : الاختلاف، وهو خطأ طباعي .

ثم شرع في تعليل عدم تسرع المحدثين إلى نقد المتون، وأسوق ذلك باختصار .

قال رحمه الله تعالى : وذلك لأن متن الحديث :

أ ــ قد يكون متشابها غير مفهوم العبارة، فلا محل ــ مع هذا الاحتمال ــ لتحكيم النقد العقلي المجرد في المتن .

ب ــ وقد يكون متن الحديث ليس من قبيل الحقيقة بل من قبيل المجاز، فرفضه ــ باعتبار حمله على الحقيقة استنادا إلى أن العقل أو الحس والمشاهدة لا تقرّه مع إمكان حمله على المجاز المقبول لغة وشرعا ــ تهجم وتنكّر لقواعد البحث العلمي الصحيح .

جـ ــ وقد يكون متن الحديث من قبيل المغيبات كأحوال القيامة واليوم الآخر فردّها ــ تحكيما للعقل فيها بناء على قياس الغائب على الشاهد ــ ليس من الإنصاف .

د ــ وقد يكون متن الحديث من الأخبار التي كشف العلم عن مساتيرها واعتبرت من المعجزات النبوية إلى أن جاءت الأيام بتصديقها .

وقد ضرب أمثلة لكل ما جاء في هذه النقاط، ولنكتف بما جاء في النقطة الأخيرة، حيث قال ــ رحمه الله تعالى ــ:

وذلك مثل الحديث الصحيح " إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهن بالتراب" [٥٥]، فقد أثبت بعض الأطباء [٥٦] أثر التراب الفعال في قتل وإزالة الميكروب المتخلف عن سؤر الكلب، على حين كان بعض المارقين يعتبرون مثل هذا مجازفة وتعنتا في التشريع، وأما المؤمنون فكانوا يعتبرونه من قبيل التعبد حين خفيت عنهم الحكمة .

---

[٥٥] – متفق عليه، أخرجه البخاري برقم ١٧٢ في كتاب الوضوء باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان ٥٠٧/١، ومسلم برقم ٢٧٩ في كتاب الطهارة ــ باب حكم ولوغ الكلب ٢٢٤/١ .

[٥٦] – انظر محمد وصفي، الإسلام والطب، ص ٢٨٦ .

وأضاف يقول:

أرأيت أيها المنصف لو أن العلماء المحدثين تمسكوا بالنظر السطحي وتسرعوا في الحكم ببطلان هذا الحديث وأمثاله مما خفي وجه الحكمة فيه ثم ظهرت بعد ذلك الحكمة واضحة، ألا يكون ذلك جهالة في البحث وقصورا في النظر، وإجحافا بحق صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ؟ ثم ألا ترى أن المحدثين كانوا على حق في المسلك الذي انتهجوه؟

أقول :

وهذا تنبيه مهم، ولفتة نظر صائبة، أفاض في الحديث عنها عندما تكلم على حديث الذباب وما أثير حوله من شبهات، ص٣٣١ وهو بحث قيم، تتبع فيه روايات الحديث، وبين أنه في أعلا درجات الصحة، وبعد أن شرحه برواياته، ونقل ردود العلماء الأوائل أثابهم الله تعالى، وبين أن الطب النبوي مما أوحى الله به إلى نبيه صلى الله علىه وسلم، عرض ما جاء في الطب الحديث في حديث الذباب [٥٧]، وذكر ما جاء في المحاضرة القيمة لأحد الأطباء المسلمين في جمعية الهداية الإسلامية بالقاهرة، واستشهاده بما جاء في مجلة التجارب الطبية الإنجليزية، وهي مجلة طبية متخصصة، ثم نقل تحقيقا علميا بهذا الخصوص للدكتورين الفاضلين : محمود كمال ومحمد عبد المنعم حسين، وما بينا فيه من المراجع العلمية لأساتذة متخصصين من غير المسلمين مثل الأستاذ الألماني "بريفيليد"، والأستاذ "لانجيرون"، و"كوكس" و "فارمر" من إنجلترا، و "حرمان" و " دوث" و "اتلنجر" و "بلاتنر" من سويسرا، وغيرهم، بما يفيد صحة ما جاء في الحديث الشريف .

---

٥٧ – أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه، انظر كتاب بدء الخلق رقم ٣٣٢٠ ١٢١/٨، من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، ولفظه : إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم ليترعه، فان في إحدى جناحيه داء، والأخرى شفاء .

ثم ذكر نتجية البحث الموفقة، و لم يكتف بهذا ولكنه عقب على ذلك ص٣٥١ بعنوان :

" تعليقي على هذا البحث المدعم بالمراجع والتجارب" ، قال فيه :

وإنها ـــ وأيم الحق ـــ لنتيجة موفقة حقا، وقاطعة في الدلالة على صدق هذا الحديث الذي طبل من أجله أعداء السنن و الأحاديث وزمروا .. وبعد أن يثني على الطبيبين الكبيرين، ويؤيد أن هذا التأويل مستساغ وجار على سنن اللغة العربية، يقول :

وكم لهذا التأويل من أمثلة كثيرة في الأحاديث النبوية ٥٨، فجزى الله هذين الطبيبين العالمين خيرا ٥٩ اللذين أظهرا شيئا من أسرار الله في شئ من أضعف خلق الله وهو الذباب، ومن يدري؟ فلعله لولا هذه المادة التي تتكون في جسم الذباب، والتي تقتل الجراثيم العالقة بالذباب، والتي تكون في برازها لكان الذباب أداة سحق وهلاك للناس، ولا سيما في البلاد الفقيرة والمتخلفة، وهذا من رحمة الله بالخلق، وصدق الله تبارك وتعالى حيث يقول : {ورحمتي وسعت كل شئ}١٩٨ الأعراف٦٠ .

وبعد أن يبين أن حديث الذباب من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، يضع فقرة بعنوان " توضيح وتنبيه" فيقول ـــ كما في ٣٥٢ ـــ :

---

١٩٦ – لم يدرك الشيخ رحمه الله تعالى ما تم إنجازه في مؤتمرات الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وندواته بهذا الخصوص، فقد أنجز الباحثون في هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والمتعاونون معها عددا من أبحاث الإعجاز العلمي في مواضيع شتى، كما تم إصدار مجلة باسم مجلة الإعجاز العلمي منذ عام ١٤١٦هـ، تصدر في السنة ثلاثة أعداد، مع أشرطة فيديو بلغات متعددة . وقد كشفت تلك الأبحاث والدراسات عن دقائق معاني الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، المتعلقة بالعلوم الكونية في ضوء أصول التفسير ووجوه الدلالة اللغوية، ومقاصد الشريعة الإسلامية، وللهيئة موقع على شبكة المعلومات الدولية الإنترنت بعنوان : www.aleijaz.net

١٩٧ – في الأصل : فجازى .. حقا .

١٩٨ – سورة الأعراف، آية:١٥٦.

أحب أن أقول : إن الأمر في قوله صلى الله عليه وسلم : "فليغمسه كله" وفي قوله "ثم ليطرحه"، إنما هو للإرشاد والتعليم وليس على سبيل الوجوب .

وهذا تنبيه جيد ومفيد، يدل على دراية وفقه، ومثله قوله :

ومما ينبغي أيضا أن أوضحه وأنبه إليه، أننا معاشر العلماء المحدثين حينما ننتصر للحديث الشريف الصحيح رواية ومعنى، ليس معنى هذا أننا لا نحض الناس على مقاومة الذباب، وتطهير البيوت والمنازل، والشوارع والطرقات، وعلى حماية طعامهم وشرابهم منه، كلا وحاشا، فالإسلام دين النظافة بكل ما تحتمله هذه الكلمة من معان، ودين الوقاية من الأمراض والشرور، وقد جاء الإسلام بالطب الوقائي كما جاء بالطب العلاجي، وسبق إلى بعض ما لم يعرف و لم يتوصل إليه إلا في العصور الحديثة ثم شرع يدلل على ذلك .

وهذه مثل سابقتها تدل على فطنة الشيخ ونباهته، وحقا إنه لجهد مشكور، ومنافحة مؤيدة وموفقة في الانتصار للسنة، ودحض شبهات خصومها، فلقد أجاد وأفاد، فجزاه الله خيرا على ما قدم .

الخاتمة

وبعد هذا التطواف والعرض المختصر لأبرز ما في كتاب الشيخ أبي شهبة رحمه الله تعالى "دفاع عن السنة" نذكر أبرز نتائج البحث، بنقاط محددة على النحو الآتي :

ـــ لم تكن الشبه المثارة حول السنة النبوية الشريفة وليدة اليوم، ولكنها قديمة قدم السنة ذاتها، ولم تزل تتكرر عبر السنين، منها ما يلبس ثوبا جديدا ليبدو وكأنه جديد !!

ـــ رغم كثرة الشبه المثارة حول السنة النبوية الشريفة، فإن شبهة اتهام المحدثين بقلة الفقه، التي أثارها المستشرقون وتلقفها وروج لها أتباعهم، تعد من أشد الشبهات خطرا، وأعظمها ضررا .

ـــ يعد كتاب "دفاع عن السنة" للشيخ أبي شهبة ـــ رحمه الله تعالى ـــ من أهم الكتب التي تولت رد الشبه وتفنيدها، ومنها شبهة اتهام المحدثين بقلة الفقه، فقد أثبت أن لعلماء السنة جهودا واضحة في نقد المتون، وتمحيص الروايات، وفقه الحديث .

ـــ إن كثرة فقهاء المحدثين في الأمة، خير ما يفند هذه الشبهة ويدحضها، وما تبويب البخاري لصحيحه، وطريقته في التراجم، وتقطيعه للحديث الواحد في مواضع حسب مناسباته الفقهية، إلا مثالا على علو كعب المحدثين في الفقه وعلم الدراية .

ـــ من جهود الشيخ أبي شهبة، بيان سر اتئاد المحدثين في نقد المتون، وأنه دليل على دقة نظرهم وثاقب بصرهم، وضرب مثلا بحديث ولوغ الكلب، وحديث الذباب، مستشهدا برأي الأطباء، وما كشف عنه العلم الحديث .

ـــ لا ينكر وجود بعض المحدثين من المتأخرين، من ينطبق عليه وصف قلة الفقه، لكنهم قليلون، ومع هذا فلا يصح نكران جهدهم في جمع الحديث وحفظه،

والعناية بنقله للأمة كما تلقوه .

ـــ يعد الفصل بين الفقه والحديث في مناهج التعليم، والدراسات المعاصرة، ظاهرة خطيرة، ونذير شر لا بد من تلافيه قبل استفحاله، ومكمن الخطورة فيمن يتصدى للإفتاء وتقرير الأحكام دون دراية معمقة بالفقه وأصوله !!

المقترحات:

وبعد هذا العرض المتواضع لجهود شيخنا الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو شهبة ـــ رحمه الله تعالى ـــ في هذه الجزئية، أقدم بعض المقترحات التي أرجو أن تكون نافعة ومفيدة لمن يقرأ هذه البحث لاسيما من يعنى بالدراسات القرآنية والحديثية، وقد أجملتها في النقاط الآتية:

١ ـــ أن تشكل لجنة من المتخصصين تعنى برصد الشبهات المعاصرة وتصنيفها، ثم طرحها أمام الباحثين، ليقوم كل باحث بنقد شبهة منها، نقدا علميا وموضوعيا، ومناقشة ذلك في ندوات تعقد بهذا الخصوص .

ويستحسن جمع الكتب والبحوث في ذلك سواء التي أوردت تلك الشبه، أوالتي تولت الرد عليها، وجعلها في مكان واحد كي يسهل على الباحثين الوقوف عليها، وتحديد ما يلزم رده منها.

٢ ـــ حث طلبة الدراسات العليا على تسجيل رسائلهم ـــ الماجستير أو الدكتوراه ـــ في نقد تلك الشبهات وتفنيدها، وفق منهج علمي محكم، مع ضرورة الاهتمام ـــ في هذه الرسائل ـــ بالكيف لا بالكم، فلا مانع أن تكون الرسالة صغيرة الحجم ما دامت تركز على قضية من قضايا العصر، وتعالجها معالجة دقيقة وهادفة .

٤ ـــ وأختم باقتراح خاص أتوجه به إلى الأساتذة المتخصصين في الحديث الشريف وعلومه، أن يولوا هذه الشبهة ـــ شبهة اتهام المحدثين بقلة الفقه

ـــ اهتمامهم، فهي بحاجة إلى دراسة مستفيضة، وكتاب مستقل، فطوبى لمن كان له قصب السبق في هذا، والله تعالى وحده هو الموفق والمستعان .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قائمة المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم.

ـــ أمين. أحمد، ضحى الإسلام ـــ بيروت ـــ دار الكتاب العربي.

ـــ ابن الجوزي. أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن ت٥٩٧هـ ـــ تلبيس إبليس، بيروت دار الكتب العلمية ـــ الطبعة الأولى.

ـــ ابن الجوزي. أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن ـــ صيد الخاطر، ـــ تحقيق محمد عبد الرحمن عوض ـــ بيروت ـــ دار الكتاب العربي ـــ الطعبة الأولى سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

ـــ ابن أبي حاتم. أبو محمد عبد الرحمن ت٣٢٧هـ ـــ الجرح والتعديل، الهند ـــ مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ـــ الطبعة الأولى.

ـــ الحاكم. أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت٤٠٥هـ ـــ معرفة علوم الحديث، تصحيح وتعليق معظم حسين ـــ بيروت، دار الكتب العلمية ـــ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

ـــ الخطيب. أبو بكر أحمد بن علي ت٤٦٣هـ ـــ، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، بيروت، دار الكتاب العربي.

ـــ الخطيب. أبو بكر أحمد بن علي ت٤٦٣هـ ـــ، الكفاية في علم الرواية ـــ بيروت ـــ دار الكتب العلمية.

ـــ الذهبي. أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت٧٤٨هـ تذكرة الحفاظ، الهند مطبعة دار المعارف ـــ الطبعة الرابعة.

ـــ الذهبي. أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت٧٤٨هـ سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وغيره ـــ بيروت ـــ مؤسسة الرسالة ـــ سنة ١٤١٣ هـ.

ـــ السباعي. مصطفى حسني ت ١٣٨٤هـ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، بيروت ـــ المكتب الإسلامي ـــ الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ـــ السمعاني. عبد الكريم بن محمد بن منصور ت ٥٦٢هـ ـــ أدب الإملاء والاستملاء، تحقيق ماكس فايسفايلر ـــ بيروت ـــ دار الكتب العلمية ـــ الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

ـــ السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن ت٩١١هـ، تحذير الخواص من أحاديث القصاص، تحقيق الشيخ محمد الصباغ ـــ المكتب الإسلامي.

ـــ الشافعي. الإمام محمد بن إدريس ت٢٠٤هـ الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر ـــ القاهرة مكتبة التراث ـــ سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

ـــ أبو شهبة. محمد بن محمد ت ١٤٠٣هـ دفاع عن السنة، القاهرة ـــ مكتبة السنة ـــ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

ـــ الشوكاني. محمد بن علي ت١٢٧٠هـ، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، مكة المكرمة، مطبعة نزار الباز ـــ الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

ـــ ابن الصلاح. أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن ت ٦٤٣هـ مقدمة علوم الحديث، بيروت دار الكتب العلمية ـــ سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

ـــ ابن عاشور. محمد الطاهر، التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون للطباعة.

ـــ العسقلاني. أحمد بن حجر ت٨٥٢هـ تقريب التهذيب، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف بيروت ـــ دار المعرفة.

ـــ العسقلاني. أحمد بن حجر، تهذيب التهذيب، الهند ـــ مطبعة مجلس دائرة المعارف.

ـــ ابن عبد البر. أبو عمر يوسف ت٤٦٣هـ، جامع بيان العلم وفضله ـــ تحقيق أبي الأشبال الزهيري ، الرياض، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

ـــ ابن العماد. الحنبلي أبو الفلاح عبد الحي ت١٠٨٩هـ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ـــ دار المسيرة.

ـــ القاري. ملا علي ت١٠١٤هـ، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، تحقيق الشيخ محمد الصباغ ـــ بيروت، مؤسسة الرسالة ـــسنة ١٣٩١هـ.

ـــ الكتاني. محمد بن جعفر بن إدريس ت ١٣٤٥هـ نظم المتناثر في الحديث المتواتر، بيروت ـــ دار الكتب العلمية.

ـــ ابن كثير. إسماعيل بن عمر ت٧٧٤هـ، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ـــ دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع.

ـــ المليباري. حمزة عبد الله، نظرات جديدة في علوم الحديث، دار ابن حزم الطبعة الثانية سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م .